وفادة البطريرك يوسف العاقوري

الى مدينة رومية

بقلم الاب توتل اليسوعي

الا حضرة القس فيلبوس حنا واكد حبيش الغزيري الانطوني عرض علينا رسالة وجيزة عثر عليها بين اوراق اسرته ، وهي مؤرخة في ١١ تموز سنة ١٦٤٦ ، وموقعة ومختومة باسم « الحقير يوسف بطرس البطريرك الانطاكي » ، موجهة الى الشيخ طربيه حبيش ؛ وسألنا رأينا فيها ، واقترح علينا نشرها في المشرق ان كان لها فائدة فتحفظ من ايدي الضياع .

وبعد النظر والبحث فيها استحسنا الاقتراح واليك نص الرسالة مع بعض التعليقات التي سوف تساعد على فكّ الغازها .

وليس من سبيل الى الشكّ في صحة نسبة هذا الاثر الى زمانه ومكانه ومؤلفه ، ولون الورق وسمكه وحبره وانشاء الرسالة الشاهد على قدمها . طول البطاقة ٢١ سنتمترًا ونصف وعرضها ١٤ سنتمترًا ونصف واليك نصها :

« البركة الالهية تشمل جناب حضرة ولدنا الشيخ طربيه حبيش ادام الله تعالى شريف وجودكم للدوام

غب اهداكم البركة الالهية ومزيد كثرة اشواقنا لرؤياكم السعيد والسؤال عن خاطركم ان شاء الله يا جناب الشيخ تكونوا بكل صحه وتوفيق ونحن ربنا عاطينا صحه زايده فقط نحن مشتاقين اليكم صار ماضي شهرين ما شفناكم ترغب مشاهدتكم . ثم نعرض لجنابكم ما جد عندنا فار الاحد حضروا لندنا اخوتنا المطارين وتحطبنا معهم باشيا ماضيه وحاضره وتم راينا معهم ان نبعت الى روميه المقدسة وبلاد الفرنج احد اخوتنا المطارين وهو المطران مخايل مطران طربلوس لاجل بعض اشغال وعند حضوره لداركم يعرض لجنابكم ما به الكفايه ومن كون لكم الشهره بجميع البلدان وبالخصوص عند الدول بما انكم من اعظم اشراف جبل لبنان وهذا مبرهن عند الجميع ان سطوتكم مشهورة في الشرق والغرب ونحن واخواننا المطارين لنا امل زايد في جنابكم وفضلكم سابغة علينا وعلى عموم الطايفه بالمساعده ومرغوتنا الان من جنابكم ان تصحبوا اخونا المطران مخايل الذي هو متشرف بداركم العامره بكتابه قويه ليكون معروف عند الدول وربنا يقدرنا على مكافاتكم ونحن واخوتنا المطارين

فارضين صله حتى ربنا يحفظ لنا وجودكم لانكم ملجا للجميع واخواتنا المطارين جدوكم اشواقهم القلبية وتكرار البركة الالهية حرر في ٢١ تموز سنة ١٦٤٦ الحقير

يوسف بطرس
البطريرك الانطاكي »

ما هي الاشغال التي شغلت البطريرك الماروني ومطارنته والجأتهم الى ارسال مطران طرابلس الى رومة وبلاد الافرنج ، والاهتمام بتزويده بكل ما كان يحتاج اليه في تلك الايام لتذليل العقبات بوجهه ؟

قد يتبادر للفكر ، في اول وهلة ، ان المطران سافر لجمع الحسنات ، وهذا ما رآه حضرة الاب بطرس قرألي صاحب المجلة البطريركية في نشره اثرنا هذا في عدد حزيران الفائت . ولم يزد عليه من شرح او تعليق . والامر معقول ومناسب لما نعرفه عن عادة استغاثة المسيحيين الشرقيين باخوانهم الافرنج ابان المحن والضيقات . ومما يرجح صحة هذا التأويل قراءة ما كتبه الدويهي عن السنة ١٦٤٦ المؤرخة فيها رسالة البطريرك يوسف ، قال :

« في سنة الف وستماية وستة واربعين مسيحية انزل حسن باشا عن ايالة طرابلس . وعاد اليها محمد باشا الارناؤط . وقام بكوخيته ابن الصهيوني . والحاج قر الدين . وكانت السنة مرخصة . ولكن دخل فيها نيسان بارد وكثير المطر . فانضربت شجرية الجوز والكرم والتوت وطلعت مواسمهم ممحلة . حتى ان نصف رطل البزر عمل في بعض اماكن رطلين شرانق . وحكم الطابق البوش والسايقة وقبل هذا الآن كان غلال الزيتون في القسم النصف الفلاح وربع للسلطنة وربع مظالمة . فداروه خراج . وكان ضمان مال طرابلس وايالتها بثلاثة كرات تورد للسلطنة . فقطعوا على كل فدان وعلى رأس الانسان اربع وعشرين قرش . على ماية الزيتون خمس قروش . وعلى ماية التوت اربعة ونصف فانضامت الرعايا وتشتتوا عن مواطنهم . وخلت بعض ضياع بتمامها . » (١

فلا بد ان تكون تلك الازمة الشديدة حركت الشفقة في قلب البطريرك فكانت مدعاة لارساله المطران مخائيل والتوصية به بيت حبيش لينال بواسطتهم اللقاء الحسن من جانب المحسنين .

على ان المقابلة بين تاريخ الرسالة وبين تواريخ انتخاب وتثبيت البطريرك يوسف بن حليب العاقوري تتخطى بنا الى ابعد من ذلك ، الى مباحث ونتائج

---

١) عن مخطوط كرشوني مؤرخ في ٨ شباط ١٧٩٢ ، اقتنته المكتبة الشرقية حديثاً .

يرتاح اليها الخاطر ، وان لم تكن تضطره الى اليقين في صحة امرها.

من المقرّر ان انتخاب البطريرك يوسف الطاقوري تمّ في ١٥ آب سنة ١٦٤٤، ومن المقرر ايضاً ان التثبيت لم يأته من رومة الّا في ١٠ ايلول ١٦٤٦. فلماذا هذا التباين بين تاريخي الانتخاب والتثبيت ؟

قال الدويهي في تاريخ الازمنة [1]:

« في الخامس عشر من شهر آب (١٦٤٤) تخلف على [البطريرك جرجس عميره] في الكرسي يوسف ابن حليب اسقف صيدا. . .وقدم الى رئاسة الكهنوت مخايل سماده الحصروني على مدينة طرابلس

وفي سنة ١٦٤٥ ارسل قصاده لرومية القس عبد المسيح ابن الطويل الحدثي والشدياق بطرس ابن مخلوف الفوسطاني. . ليطلبان التثبيت وان يكرم بطبع الفرماطيق. . وفي شهر ايلول من السنة الثانية [١٦٤٦] اعظام [البابا] على ما بخاطرهم ، وارسل الى البطرك التثبيت . . . »

فهل يكون تأخر التثبيت مسبباً عن تأخر وصول الوفد الى رومة ؟ كلّا لان الفراماطيق المذكور طبع سنة ١٦٤٥ في رومة[2]. وكتب القس عبد المسيح انه وصل الى رومة في ٢ تموز سنة ١٦٤٥[3]

وهل يكون سبب التأخر السبب نفسه الذي حال مدة سنتين دون تثبيت البطريرك ابن عميره بعد انتخابه ؟

روى حضرة الاب ابراهيم حرفوش عن كتابة باسم المطران جرجس حبقوق نشرها في المشرق (٥ [١٩٠٢] : ٦٨٩) ان جرجس بن عميرة لما اقيم بطركاً « بعث لرومية القس ميخائيل الحصروني حتى يجيب له تثبيت من قدس الحبر الاعظم من غير شور مشايخ الشعب ومكاتيبهم . وعند ما وصل القاصد لرومية فكان هناك ثلاثة مطارين من الموارنة وهم المطران سركيس بن الرز والمطران جرجس ابن مارون من اهدن والمطران اسحاق الشدراوي . . . وعندما عرفوا في المرسال قالوا له : ابن مكاتيب حضرة المشايخ بيت الخازن وبيت حبيش وباقي اعيان الطائفة . فقال لهم الحق ولم يقدر ان ينكر قائلاً : « ان

---

١) في المخطوط المذكور.

٢) راجع ديب : الكتبة المارونية ، في « الموسوعة اللاهوتية الكاثوليكية الافرنسية » (١٠ : ١ ، ٦٧).

٣) راجع الدبس : الجامع المفصل ، ص ٢٠٧.

البطرك ما شاور احد لا بيت الخازن ولا غيرهم . فقالوا له : ما يمكن ان يتم لك حال اذ لم تجي مكاتيب المشايخ بيت الخازن وبيت حبيش . فالتزم انه عاود فارغ خايب من التثبيت لعند بطركه . وعند ما تحقق جرجس ابن عميرة ان لم يصير له تثبيت بطركية على ملة الموارنة الا برضا المطارين والاعيان المذكورين اضطر انه اجتهد اجتهاداً جزيلاً على حضرة المشايخ بيت الخازن وبيت حبيش وطيلع منهم مكاتيب ومن المطارين الموجودين عنده في بلاد الشرق وسفر بهم القاصد ثانياً الى رومية حتى جاه التثبيت ».

فينتج من هذه الوثيقة ان اساقفة الطائفة المقيمين آنذاك في رومة اشترطوا على تأييد جرجس عميره في طلبه ان يكون مشفعاً بتوصية كبار الطائفة واعيانها. ولم تمانعهم رومة في اشتراطهم بل جارتهم على رغائبهم.

فيكون من المرجح اذن ان غرض سفر المطران الى رومة كان ، ليس فقط جمع الحسنات ، ولكن ايضاً طلب تثبيت البطريرك يوسف.

وليس كلام الدويهي في ان البابا «اعطاهم على خاطرهم» اعني القس عبدالمسيح ورفيقه لينفي امكان تدخل المطران بالامر، وفي علمنا انه في ٢١ تموز سنة ١٦٤٦ (راجع الوثيقة) كان على اهبة السفر الى رومة . فلما وصل اليها ساعد بنفوذه الشخصي وبتوصية المشايخ التي كانت بين يديه على ازالة العوائق التي كانت تحول منذ سنتين دون تثبيت البابا للبطريرك يوسف . وقد يترجح هذا الرأي اذا كان من ثم اسباب لذاك التأخير.

وهناك حادث آخر تفيدنا معرفته في تعليل هذا التأخير:

في ٥ كانون الاول من سنة انتخابه (١٦٤٤) عقد البطريرك يوسف الطاقوري مجمع حرش ، وفيه عني الاحبار والآباء المجتمعون بنص القوانين التي كانت ترمي الى اصلاح ما وقع من الخلل في النظامات الطقسية القديمة وفي جملة تلك القوانين اعلن المجمع بنوداً غايتها كبح جماح كل من يتعدى السلطة المألوفة المحلية ، ورشق بالحرم الكنائسي الكهنة الاجانب من لاتين وشرقيين الذين يقدمون على سماع اعترافات الموارنة ومناولتهم القربان المقدس من غير تفويض البطريرك ، ونال بالحرم ايضاً الموارنة الذين يقبلون هذين السرين من ايدي هؤلاء الكهنة.

وقد يكون الدافع لوضع هذه القوانين البطريرك ذاته ، فانه كان سبق زمن جلوسه على الكرسي وتهدّد بمثل تلك العقوبات الموارنة الذين يقصدون الى المرسلين للغاية المذكورة . ففرّط ، ورفعت رومة صوتها محتجّة ، وارسل مجمع انتشار الايمان رسالة «امر فيها ان يُنذر (*moneri*) بطريرك الموارنة انه ما كان له ولا عليه ان يتعدّى حق الكرسي الرسولي ، ويرشق بالحرم الموارنة عند اخذهم الاسرار من مرسلي ذلك الكرسي . ولذلك ، فلا بد له من ان يسترد القرار المذكور ، وان يبلغ المجمع المقدس السبب الذي من اجله منع الموارنة عن اخذ الاسرار من ايدي المرسلين وان يرى فيما يفرضه واجب التعويض على الكهنة الذين قد يكونون تأذوا من تلك الحوادث . »

اخذنا هذا النص عن حضرة الاب بطرس ديب في بحثه على مجامع الكنيسة المارونية (١٥٥٧–١٦٤٤) . نشره ولم يخشَ لوم اللائم وقال : هل بلغت رسالة مجمع انتشار الايمان الى البطريرك ؟ ومهما كان من الامر فقد كتب البطريرك يوسف الى الكردينال بربريني ، محامي الموارنة ، ورفع اليه مجدّدا حججه على المرسلين . وتحريره مؤرخ في السنة ١٦٤٥ (١٤ نيسان) تلك التي اوفد فيها القس عبد المسيح ورفيقه اطلب التثبيت . فكانت تلك الاخبار ، ولا شك ، مبعثاً لاثارة الخواطر في الدوائر الرومانية ، ولا عجب ان تكون ابطأت في تلبية طلب التثبيت الى ١٠ ايلول ١٦٤٦ . في ذلك العهد كان مخائيل مطران طرابلس قد تمكن من الوصول الى رومة بعد مغادرته لبنان في اواخر تموز . ولا نخاله الا مستحثاً الدائرة الرومانية في عملها ضاماً سعيه الى سعي القس عبدالمسيح ورفيقه وغيرهم من الموارنة المقيمين في المدينة الابدية حتى نالوا التثبيت .

واذا اصبنا في حدسنا هذا ، ولا نرى فيه ما يخالف المعقول ، فيكون غرض الرسالة التي وجهها البطريرك يوسف بن حليب الطاقوري الى الشيخ طربيه حبيش ان ينال التوصية للحصول على التثبيت البابوي ، وللمساعدة على جمع الحسنات من بلاد الافرنج .

ونحن في غنى عن تبيان ما في وثيقة البطريرك من التنويه بوجاهة الذين أرسلت اليهم .